◆ تقـديـم

بقلم صاحب المعالى

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى

مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد ،

فقد أُتيح لى أن أقرأ الجزء الحادى والعشرين من مجلة مجمع اللغة العربية (١٣٦٨هـ - ١٩٦٦م) فرأيت كلمة ضافية عن (كتاب الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير) ، ألقاها الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام ، مقرر لجنة الأدب بالمجمع ، فى حفلة أُقيمت لتكريم الدكتور محمد رجب البيومى مساء يوم الأربعاء ٢٦ من شعبان سنة ١٣٨٥هـ، بمناسبة فوزه بالجائزة الأولى للدراسات الأدبية عن كتابه الأدب الأندلسى ، وسَرَّنى أن أجد الدكتور محمد مهدى علام يقول فى كلمته الجامعة - بعد أن قدم المؤلف تقديمًا حافلاً بتاريخه وآثاره الأدبية فى الشعر والنثر ما نصه[1] :

«ومما يذكر للباحث شجاعته فى مناقشة آراء السابقين والمعاصرين ، وهى شجاعة محمودة ، كشفت عن سعة اطلاع وثقة بالنفس ، كما كشفت عن بعض الحقائق التى ندت عن سابقيه ، ولا شك أنه سيسلم لمن يقرأ بحثه أن يسلط عليه من الأضواء مثل ما سلط هو على كتابات مَنْ سبقه ، لقد تبنى الباحث موضوعًا شاقًّا تبناه وأحبه وعطف عليه ، وعكف عليه ، ولكنه لم يتعصب له إلا قليلاً ، لقد بحث عن المجد العربى فى الأندلس ،

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢١ ص ٢٠٦ .

وأشاد به وبأثره فى المشرق العربى ، وفى المغرب الأوربى ، ولكنه حين بدا له أن السبق لم يكن للأندلس فى بعض الفروع لم يتردد فى إعلان ذلك ، كما فعل فى موضوع «الموشحات» ، وفى موضوع رثاء المدن والدول ، فقد خاض فى هذين الميدانين معركتين أصاب فيهما نصرًا ، وأصابته منهما بعض الجراح ، وقد كان فى هذا ككل جندى باسل يتقدم إلى هدفه محتملاً كل ما يقابله من صعاب .

لقد تحدث الباحث فى أثر الأزجال والموشحات فى شعراء التروبادور ، وعن دور الأندلس فى نمو القصة الأوربية ، وعن أثر الحب العذرى فى الأدب الغربى ، واختص بعض نوابغ الأندلسيين بدراسة مستفيضة ، كصاحب طوق الحمامة ، وصاحب حىّ بن يقظان ، وابن رشد ، وما أحدثته كتبه من يقظة فكرية فى أوربا ، كذلك ناقش فى أسلوب علمى تأثير ابن شهيد فى أبى العلاء ، وأثر ابن خلدون فى الأسلوب الأدبى المعاصر» . أ.هـ

وقد دفعنى ما كتبه الدكتور علام إلى طلب الكتاب وقراءته ، لأن صاحبه من منسوبى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وممن قاموا بالتدريب فى كلية اللغة العربية بالرياض ، فدهشت حين أخبرنى الدكتور البيومى أنه لا يزال مخطوطًا ، ورأيت أن أتصفحه فى مخطوطته ، فراقنى أن أجد إلمامًا طيبًا بالموضوع ، وأن أُصيب بعض الجديد القيم مما أشار إليه الدكتور محمد علام .

والحق أن روح الكتاب تجذب إليه قارئه ، لأنه يبرز مكانة الإسلام الحضارية ، وأثره فى تقدم العمران شرقًا وغربًا ، ويصور ما أحدثه الفتح الإسلامى فى الأندلس من حضارة زاهرة ، ومجد علمى تليد ، ولم يرسل الباحث قوله إرسالاً دون تدليل ، فقد كانت مصادره الموثوق بها ذات إقناع حاسم ، وبعضها مما كتبه قوم لا يدينون بالإسلام ، ولكنهم يعترفون بالحقيقة العلمية بدون تعصب بغيض ، وأنت تقرأ ما كتبه المؤلف تحت عنوان : «قضية التأثير من الوجهة الأسبانية» ، فتجد أقوال المؤيدين مسلسلةً وفق أدوارها الزمنية ، وفيهم مَنْ أَقْنَعَ وأمتع .

وقد وقفتُ وقفات راضية عندما نقله الدكتور البيومى عن الأديب الأشهر «كلوت فارير» الفرنسى ، إذ يتحدث عن مآثر الإسلام فى الحضارة الإنسانية ، ويعلن أن اندحار الجيش العربى فى معركة «بواتيه» المعروفة عند المسلمين بمعركة «بلاط الشهداء» كان كارثة على أوربا ، إذ أخَّرَ نمو الحضارة سبعة قرون ، ولو انتصرت جيوش الإسلام فى هذه المعركة لأنقذت أوربا من الظلام .. يقول الكاتب فيما نقله الدكتور البيومى وجعله خاتمة لكتابه :

«حدثت فاجعة ، ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الإنسانية فى العصور الوسطى ، وكان منها أن غمرت العالم الغربى - مدة سبعة قرون أو ثمانية ، إن لم يكن أكثر - طبقة عميقة من التوحش ، لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه الفاجعة هى التى أَمْقَتُ حتى ذكرها ، وأعنى بها الانتصار البغيض الذى ظفر به على مقربة من «بواتيه» أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة «شارل مارتل» على كتائب العرب والمسلمين ، الذين لم يُحسن عبد الرحمن الغافقى جَمْعَهُمْ على ما ينبغى من الكثرة ، فانهزموا راجعين أدراجهم ، وفى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء .

يكفى المرء أن يطوف فى حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التى لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال - أشبيلية ، وغرناطة ، وقرطبة ، وطليطلة - ليشاهد والألم آخِذٌ منه ما عسى أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمرانى المتسامح ، وخلَّصها من الأهاويل التى لا أسماء لها ، وكان من ذلك أن نتج خراب «غاليا» القديمة ، فاستعبدها لصوص «أورستراريا» ، ثم اقتطع قرصان «النورمانديين» جزءًا منها ، ثم تجزأت وتمزقت وغرقت فى دماء ودموع .... حدث ذلك حين كان العالم الإسلامى من نهر الوادى الكبير فى أوربا إلى نهر السند فى قلب آسيا يزدهر كل الازدهار فى ظل الإسلام» .

أما الأبحاث الخالصة للأدب العربى ففيها الجديد حقًّا حين أثبت المؤلف بالشواهد أثر الأدب العربى فى نمو القصة الأوربية ، كما أوضح تأثير العفّة العربية والمروءة الإسلامية

فيما وجد من شعر عفيف يتجه إلى الْمُثُلِ الكريمة ، وأنا لست معه فى جعله ابن خلدون أندلسيًا - متابعةً للأستاذ أحمد أمين - فالرجل مغربى بنشأته ومرباه ، ولا يغنى انتماؤه فى أصوله البعيدة للأندلس شيئًا فى هذا المجال .. وإذا كان الإسلام أمة واحدة فإننا نضيق كل الضيق بمحاولة استئثار إقليم ما من الأقاليم الإسلامية بنابغة لم يظهر فى أُفقه التماسًا لتعلاّت بعيدة ، كما هو الشأن فى ابن خلدون ، وابن سيناء ، والبيرونى ، ممن دارت حولهم معارك لا تهدى إلى صواب !

ومجال المناقشات التى أدارها المؤلف أكثر من أن يُحَدَّ ، وقد حُمدت له شجاعته الأدبية مع أساتذته الكبار ، لأن الحق حق ، كما وقفتُ عند قوله فى المقدمة : «وقد يرى القارئ أنى أكثرتُ من مناقشة أستاذى الكبير أحمد أمين فى الأدب الأندلسى ، وعذرى أن صلتى الشخصية به قد دفعتنى من قديم إلى قراءة جميع مؤلفاته واستيعابها جهد الطاقة ، وقد كان - رحمه الله - يرتاح إلى معارضتى ، ويشجعنى عليها ، مصيبًا كنتُ أو مخطئًا» .

أقول : وقفتُ عند هذا القول ، لأنى أعرف من تاريخنا العلمى تشجيع الأساتذة لتلاميذهم ، وترحيبهم بمعارضاتهم العلمية القائمة على الدليل ، ودارسو المذاهب الفقهية يقفون على كثير مما خالف فيه اللاحق السابق ، فإذا تَحَرَّجَ المؤلف بعض الشىء من مُعارضة أستاذه ، فهو تحرج لم يمنعه من قول ما يعتقد ، وتلك سنة الباحثين .

ولعل من الخير أن أترك الكتاب لقارئه ، راجيًا أن ينفع دَارِسى الأدب الأندلسى بما قدم من الجديد .

والله ولى التوفيق ....

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى

◆ مقدمة المؤلف

حين قرأتُ إعلانَ المسابقة الأدبية ، وجدتُ فى نفسى رغبةً صادقة فى الحديث عن الأدب الأندلسى ، فعندى عنه ما يمكن أن يُقال فيه ، ولكن اقتصار الإعلان المجمعى على كلمتى الأدب الأندلسى وحدهما ، قد تركنى فى حيرة ، إذ إن ثمانية قرون تحفل بمئات الشخصيات ، وشتى المذاهب ، ومختلف العصور ، لا يمكن أن يتسع للحديث عنها كتاب واحد يُكتب فى أشهر ! فلابد أن يكون الحديث عن ناحية خاصة من نواحى هذا الأدب الحبيب !

ولكن أى ناحية أختار ؟ إنَّ كتابًا يقدم فى مسابقة مجمعية ، لابُدَّ أن يحفل بالجديد ، فيضيف للحقائق المعلومة طريقًا غائبًا ، أو يوضح غامضًا خافيًا من الرأى ، أو يفصل مجملاً موجزًا من الحكم ، وإلا كان تكرارًا سقيمًا يُطالعه المثقف متحاملاً على نفسه ، ومشوقًا أن يفرغ من سطوره ، وكأنها عبء ثقيل ، لذلك أخذت أفكر فيما أتحدث عنه ، حتى اهتديت إلى موضوع «التأثر والتأثير» ، فهو فى رأيى يتسع للتفصيل والتوضيح .

لقد تعرَّض بعض الباحثين إلى هذا الموضوع ، فليس الحديث عنه جديدًا ، كل الجدة ، ولكننا عَهِدْنَا من يكتبون عنه يوجزون القول ، بحيث يكتفون بباب واحد أو بابين ، فرأيتُ أن أقف وقفات هادئة لدى مناحيه المتشعبة لأرد عمليًّا على مَنْ يزعمون أن إيضاح التأثير الأندلسى فى الأدب الأوربى شاق عسير ، لأن الآثار الأدبية فى زعمهم يندمج

لاحقها بسابقها ، بحيث يتعسر تمييز أصولها على الوجه الصحيح ، ولا كذلك الآثار الفنية والحضارية ! فهم يزعمون أننا لا نستطيع أن ننكر أثر الأندلس فى الموسيقى ، والغناء ، والزخرفة المعمارية ، لوجود الآثار المواثل ناطقة شاهدة ، ولكننا نجد من ينكر التأثير الأدبى ، معارضًا ما قيل فىإثباته باحتمالات وافتراضات ، تقوى آنًا وتضعف أوِنَة ، وقد كان ذلك ممكنًا لو جملنا حديث التأثير فى بعض صفحات كما تعوَّد أن يجعله الكاتبون ، أما وقد أفردنا كل باب ببراهينه وأدلته ، فإن الافتراضات المحتملة لا تنهض فى دحض الواقع الراسخ إلا كما تقدر نسمة واهية على زعزعة طَوْدٍ مكين !

ولكن كيف نتابع خطوات هذا الموضوع الدقيق ؟ لدينا تأثر وتأثير ، فلنبحث عن مواضع التأثر فى الأبواب الأولى ، ومنها المطروق الواضح مما لا سبيل إلى خفائه ، كأستاذية المشرق ، وارتداد الثقافة الأندلسية إلى ينابيعه ، ومنها ما أتينا فيه بجديد رأيناه واعتقدناه ، كتأثير كتاب اليتيمة فى أدب الأندلس ، وتحديد مدى الأصالة فى شعر الطبيعة ، وفى رثاء المدن والممالك ! والخطب فى ذلك كله أهون من سواه .

أما موضوع التأثير ، فقد تطلب من التبسيط والإيضاح ما ملأ أكثر صفحات هذا البحث ، إذا كان علىَّ أن أواجه حقائقه العلمية فى فصول محددة ذات أهداف ، فتحدثت فى فصل عن أثر الأزجال والموشحات فى شعراء التروبادور ، وفى فصل ثان عن دور الأندلس فى نمو القصة الأوروبية متأثرة بالتيار العربى ، وفى فصل ثالث عن نفحات الحب العذرى فى الأدب الغربى ، مستلهمة آثار ابن حزم فى الطوق ، وفى فصل رابع عن سبق ابن طفيل إلى الحديث عن التربية الذاتية والتاريخ الكونى للحياة ، والتأمل الفلسفى فى قصة حى بن يقظان ، موضحًا مبلغ تأثيره فيمن تلاه ، وفى فصل خامس عن ملاحم الأندلس شعبية وعربية ، وكيف أوحت باتجاه أدبى جديد .

أما التأثير فى المحيط الشرقى ، فقد بسطت الحديث عنه فى ثلاثة فصول تتحدث عن تأثير ابن شهيد فى أبى العلاء ، وعن أثر الأندلس فى الثقافة العلمية بمصر ، وعن صدى ابن خلدون فى أسلوبنا الأدبى المعاصر ، وأرجو أن أكون - بعد هذه المحاولات المتواضعة - قد أضفتُ الجديدَ بما عالجته من البسط والتوضيح .وقد تحاشيتُ جهدى أن أقع فى

أخطاء رسائلنا الجامعية كما أراها من وجهتى الخاصة ، فهى من ناحية أولى تعنى غالبًا بِالْكَمِّ عناية مستغربة إذ كثيرًا ما تتجاوز الرسالة أربعمائة صحيفة فى غير طائل ، فلو أن أحدهم كتب فى موضوع يتصل بالأندلس مثلاً لملأ أكثر من مائتى صحيفة بتاريخ الأندلس ، ومناخها ، وملوكها ، وتَابَعَ الولاة منذ موسى بن نصير إلى بنى الأحمر ، مسهبًا فى تراجم الشعراء والأدباء بدون ضرورة ملحفة ، وأنا أربأ بأعلام المجمع أن أطالعهم بالذائع الشهير ، أما المباهاة بالمراجع المحتشدة فَحَدِّثْ عنها ، إذ تجد كل صحيفة قد شطرت فى منتصفها لتشير إلى المصادر الذائعة ، ولو كانت النصوص ذات اشتهار عام ، كخطبة طارق !! على أننى لم أحتج إلى ذلك لسبب واحد ، هو أن المراجع القديمة من ناحية التأثر والتأثير تكاد تكون متشابهة فيما تقدم من أخبار ونصوص ، أما المراجع الحديثة لأساتذتنا المعاصرين فقد حفلت بالجديد حقًّا ، ولكننى تعمدت أن أشير إليها فى متون الأبواب - لا فى هوامشها - ليتسع المجال للتحليل ، وإذا كنت لا أقرأ الأسبانية - وهى هامة فى مثل هذا الموضوع - فقد استعنتُ بمترجمات الدكاترة الأساتذة حسين مؤنس ، وعبد العزيز الأهوانى ، ومحمد غنيمى هلال عن الأسبانية ، وأشرت إلى كل أثر فى مناسبته ! مع الشكر والتقدير !

هذا وقد يرى القارئ أنى أكثرت من مناقشة آراء أستاذى الكبير الدكتور أحمد أمين فى الأدب الأندلسى ، وعذرى أن صلتى الشخصية به قد دفعتنى من قديم إلى قراءة جميع مؤلفاته واستيعابها جهد الطاقة ، وقد كان - رحمه الله - يرتاح إلى معارضتى ويشجعنى عليها ، مصيبًا كنت أو مخطئًا ، وأنه فى عالم الغيب لا يزال مبقيًا على تشجيعه ! فليفسح لى زملاؤه المجمعيون من سماحتهم ما كان يفسح لى من تواضعه !

د. محمد رجب البيومى